عينية ابن زريق

محمود محمد الطناحي

ذهب الشعراء المكثرون بالذيوع والشهرة فى مجال قراءة الشعر ودرسه ، وبقى على ساحة الفريقين طائفة كبيرة من الشعراء الذين عرفوا بالشعراء المقلين ، وقد قال هؤلاء من الشعر أحلاه ، وصاغوا من النغم أعذبه ، وتوزعت أغاريدهم وأنغامهم فى المجاميع الادبية والامالى والمجالس ، وكتب التاريخ والتراجم والبلدان ، وموسوعات العلوم ، كالتفسير والنحو واللغة والبلاغة .

ولن يستقيم درس الشعر العربى وتبرز صورته واضحة الملامح بينة القسمات الا اذا جمع شعر هؤلاء الشعراء المقلين ، وأوتى حظه من البحث والتأمل .

وقد نشط اخواننا أدباء العراق هذه الايام لجمع هذا الشعر واذاعته فى دواوين صغيرة ، وعلى الرغم مما شاب عملهم من بعض العجلة والقصور فى تخريج الشعر وتوثيقه ، فانه جهد طيب خليق بكل الاحتفال والمؤازرة والاقتداء ، وليت أساتذة الجامعات العربية يغرون تلاميذهم فى الدراسات العليا بجمع هذا الشعر ودرسه ، وليتجه هذا الجمع الى البلدان فى عصورها المختلفة ، فيقال مثلا : « شعراء مصر فى القرن الرابع الهجرى » وهكذا فى سائر البلدان العربية على امتداد العصور ، ومن أعجب العجب أن ما كتبه أسلافنا لاقامة مثل هذه الدراسات كثير وفير ، ولكنه يخفى على كثير ممن يتعاطون الادب والشعر هذه الايام ، كأنه كتب بلغة غير لغتنا لامة سوى امتنا :

فدع عنك نهبا صيح فى حجراته ولكن حديثا ما حديث الرواحل

وأقول : ان بعض هؤلاء الشعراء المقلين عرف بقصيدة واحدة تناقلها الرواة وأنشدها المنشدون . ومنهم ابن زريق صاحب القصيدة العينية البديعة التى يسمع المحب فيها رجع أناته ، ويحس الغريب منها لذع الغربة يكوى فؤاده ويشده الى مراتع صباه ومرابع لهوه ، ويغذى الصوفى بها مواجيده وأشواقه ، ثم يجد فيها قارىء الشعر متعته بما يسرى فيها من نغم علوى وايقاع آسر .

وقد شرقت هذه القصيدة وغربت ، وعد حفظها من أسباب الظرف . روى أبو عبد الله الحميدى المتوفى سنة ٤٨٨ ، عن الامام أبى محمد بن حزم ، قال : « يقال : من تختم بالعقيق وقرأ لابى عمرو وتفقه للشافعى وحفظ قصيدة ابن زريق فقد استكمل الظرف (١) »

وابن زريق صاحب هذه القصيدة هو : أبو الحسن على بن زريق الكاتب البغدادى ، عاش فى بغداد ثم رحل الى الاندلس وبها توفى . ولم أجد له ترجمة تعين تاريخ مولده أو وفاته . ويرى المستشرق الالمانى كارل بروكلمان «٢» أنه توفى نحو سنة ٤٢٠ ، وقد أورد له صلاح الدين الصفدى «٣» ترجمة موجزة جدا ، ذكر فيها أنه أنشأ هذه القصيدة فى مدح العميد أبى نصر وزير طغرلبك . وأبو نصر هذا هو : عميد الملك الوزير محمد بن منصور الكندرى المتوفى سنة ٤٥٦ «٤» . لكن أبا حيان التوحيدى أنشد بيتين من قصيدة ابن زريق لم ينسبهما ، وهما قوله :

أستودع الله فى بغداد لى قمرا	بالكرخ من فلك الازرار مطلعـــه
ودعتـــــــه وبودى لو يودعنى	صفو الحياة وأنى لا أودعه «٥»

وأبو حيان توفى نحو سنة ٤٠٠ ، فيتطرق الشك اذن الى أمرين : الاول : كون القصيدة قيلت فى مدح عميد الملك الذى تاخرت وفاته كثيرا عن وفاة أبى حيان . الثانى : نســـبة البيتين لابن زريق . ولما كنا لا نملك ما ندفع به الامر الاول ، برغم أن القصيدة ليس فيها ذكر لعميد الملك . لا من قريب ولا من بعيد ، فان الشك ينحصر فى الامر الثانى ، وهو أن البيتين ليسا لابن زريق ، ويقوى هذا دليلان : الاول : أن أبا حيان لم ينسب البيتين لقائل ، لا لابن زريق ولا لغيره . الثانى : أن أبا منصور الثعالبى «٦» نسبهما ، مع بيتين يأتيان بعدهما فى ترتيب القصيدة الى الوأواء الدمشقى المتوفى نحو سنة ٣٨٥ ، والثعالبى حجة فيما يورده ، لانه يسجل أدب عصره . وقد أورد محقق ديوان الوأواء «٧» هذه الابيات الاربعة عن الثعالبى ، ووضعها فى الزيادات التى ليست بأصل الديوان ، ثم ذكر أن الابيات من قصيدة ابن زريق ، وأحال على كتاب « الكشكول » للعاملى .

فاذا صح كلام الثعالبى فيكون ابن زريق قد ضمن هذه الابيات الاربعة قصيدته التى لا شك فى نسبتها اليه ، أو أن بعض الرواة أقحم الابيات على القصيدة ، لاتفاق القافيـــة والوزن والنفس الشعرى .

ولعل مما يتصل بهذه القضية أنى وجدت أبياتا للتهامى المتوفى سنة ٤١٦ ، شـــديدة الشبه بأبيات ابن زريق ، أوردها أسامة بن منقذ «٨» ، وأولها :

أستودع الله فى أرض الحجاز رشا	فى روضة القلب مأواه ومرتعه

ونأتى الى من أثبت قصيدة ابن زريق ، فأول من عرفت : أبو سعد السمعانى المتوفى سنة ٥٦٢ ، وذكر أبياتا من القصيدة غير تامة ، وبعده : أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ ، وذكر من القصيدة عشرة أبيات ، وصلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ ، وتاج الدين السبكى المتوفى سنة ٧٧١ ، وأبو بكر بن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ ، وبهاء الدين العاملى المتوفى سنة ١٠٣١ «٩» ، وهؤلاء الاربعة ذكروا القصيدة كاملة ، وانفرد السبكى وابن حجة بايرادها بسندهما المتصل الى ابن زريق .

ومما ينبغى التنبه له أن هناك شاعرا آخر فى القرن الرابع ، عرف أيضا بابن زريق ، وقد ترجم له الثعالبى فى اليتيمة ، وأورد له شعرا ، ولم يذكر له اسما ، انما ذكره بكنيته ، فقال : « أبو محمد بن زريق الكوفى الكاتب » «١٠» ، وأنشد له بيتين فى مدح بغداد ، فى كتابه « ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب » «١١» ، وأنشد هذين البيتين أيضا ياقوت الحموى ، فى « معجم البلدان » عند كلامه على بغداد .

وقد أنشد ابن خلكان البيت : أستودع الله فى بغداد ... الخ . ثم قال : « وهذا البيت لمحمد بن زريق الكاتب الكوفى ، من جملة قصيدة طويلة » «١٢» .

ومهما يكن من أمر فهذه رائعة ابن زريق ، وقبل أن أخلى بينك وبينها ، أقول : ان هذه القصيدة ليست كل ما تركه ابن زريق من انتاج شعرى ، فقد وجدت له قصيدة جيدة فى رثاء ديك ، أوردها صلاح الدين الصفدى فى كتابه « الوافى بالوفيات » ولعل أوفق فى

نشرها قريبا ، ثم ذكر بروكلمان أن له أرجوزة فى الاخلاق ، مخطوطة فى برلين ، ومن يدرى لعل له أشياء غير هذه وتلك ، فكم فى الزوايا من خبايا :

لا تعذُليه فانَّ العَذلَ يُولِعُه
قد قلتِ حقا ولكن ليس يَسمَعُه (١٣)
جاوَزْتِ فى لومِه حَدا أضرَّ به
من حيثُ قَدَّرتِ أن اللومَ يَنفعُه
فاستعملى الرِّفقَ فى تأنيبِه بَدَلا
من عَذلِه فهو مُضنى القلب مُوجَعُه
قد كان مضطلِعا بالبَين يحمِلهُ
فضُلِّعت بخطوبِ البين أضلُعهُ (١٤)
يكفيهِ من لوعةِ التفنيد أنَّ لَه
من النَّوَى كلَّ يومٍ ما يُروِّعُه (١٥)
ما آب من سَفَرٍ إلا وأزْعَجَهُ
رأىٌ إلى سَفَرٍ بالعَزم يجمعُهُ
كأنما هو من حَلٍ ومُرتَحل
مُوكل بفضاءِ الأرضِ يذرعُه
إذا الزِّماعُ أراه فى الرحيلِ غِنىً
ولو إلى السِّنْد أضْحى وهو يزمعه
تأبَى المطامعُ إلا أن تُجشِّمَه
للرزقِ كَدا وكم مِمن يُودِّعه
وما مُجاهَدةُ الانسانِ واصِلةً
رِزقا ولا دَعَةُ الانسان تقطعُه
واللهُ قَسَّم بينَ الخلقِ رزقهم
لم يخلُق اللهُ مَخلوقا يُضيِّعُه
لكنهم مُلِئوا حِرصا فلستَ تَرى
مسترَزِقا وسوى الغايات تُقْنعُهُ
والحرصُ فى الرزقِ والأرزاق قدقُسمت



وإن تغلْ أحـــدا منا مَنيتُـــــه
فما الذي بقضـــاءِ اللهِ يَصــــنعهُ

الهوامش :

«١» الظرف ، بفتح الظاء : هو البراعة وذكاء القلب ، وقيل : الظرف فى اللسان : البلاغة ، وفى الوجه : الحسن ، وفى القلب : الذكاء .

«٢» تاريخ الادب العربى ، الملحق ١٣٣/١ ـ الطبعة الاوربية ، ومعجم المؤلفين ، للاستاذ عمر كحالة ٩٥/٧ .

«٣» الوافى بالوفيات ، مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، برقم ٨٦١ تاريخ

«٤» وفيات الاعيان لابن خلكان ٢٢٣/٤ ، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٦/٥

«٥» الامتاع والمؤانسة ١٦٦/٢ تحقيق الاستاذين أحمد أمين وأحمد الزين

«٦» يتيمة الدهر ٢٩٣/١ تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد « الطبعـــة الثانية » .

«٧» ديوان الوأواء الدمشقى ص ٢٧٣ ـ تحقيق الدكتور سامى الدهان « طبعة دمشق »

«٨» المنازل والديار ص ٢٢٠ ـ تحقيق أخى الاستاذ مصطفى حجازى ، ولم ترد هـــذه الابيات فى ديوان التهامى المطبوع فى دمشق .

«٩» السمعانى فى كتابه ذيل تاريخ بغداد ، كما حكى عنه السبكى فى الموضع الاتى من كتابه الطبقات ، وأسامة بن منقذ فى كتابه المنازل والديار المذكور من قبل ، ص ٣٣ ، ٣٤ ، والصفدى فى كتابه الوافى بالوفيات الذى مر ذكره ، والسبكى فى كتابه طبقـــات الشافعية الكبرى ٣٠٨/١ ـ ٣١١ ، تحقيق أخى الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو ، وكاتب هذه المقالة ، وابن حجة فى كتابه ثمرات الاوراق ص ٤٧٥ ـ ٤٧٨ تحقيق الاســـتاذ الكبير محمد أبو الفضل ابراهيم ، والعاملى فى كتابه الكشكول ١١٨/١ ـ ١٢٠ ، تصحيح الشيخ طاهر الزاوى . وقد خمس قصيدة ابن زريق هذه طه افندى أبو بكر ، وسمى تخميسه : بث الشجن على عينية أبى الحسن ، وطبع هذا التخميس بمطبعة بولاق سنة ١٣١٢ ، مع كتاب الدر الذى انسجم على لامية العجم ، للشيخ سيد بن على المرصفى ، كما جاء فى فهرس الادب بدار الكتب المصرية .

«١٠» يتيمة الدهر ٣٧٧/٢

«١١» ثمار القلوب ص ٥١٢ ، تحقيق الاستاذ الكبير محمد أبو الفضل ابراهيم

«١٢» وفيات الاعيان ٤٢٠/٤ « ترجمة موسى بن عبد الملك الاصبهانى » . و « أبو محمد » عند الثعالبى جاءت عند ابن خلكان « محمد » كما ترى .

«١٣» أشير هنا الى أن هناك بعض اختلاف فى رواية أبيات القصيدة ، فمن أراده فليطلبه فيما ذكرت من مراجع .

«١٤» ضلعت : أى أثقلت وتكسرت ، يقال : داهية مضلعة : أى تثقل الاضـــلاع وتكسرها .

«١٥» التفنيد : اللوم وتضعيف الرأى ، وفى التنزيل العزيز ، حكاية عن يعقوب عليه السلام : « لولا أن تفندون » قال الفراء : يقول : تكذبون وتعجزون وتضعفون . معانى القرآن ٥٥/٢ .

«١٦» الحل : نقيض الارتحال ، وهو بفتح الحاء ، وكثير من الناس ينطقه بكسر الحاء ، وهو خطأ .

«١٧» الزماع ، بفتح الزاى وكسرها : المضاء فى الامر والعزم عليه .

عقود الجمان في شعراء هذا الزمان

(القرن السابع)

لابن الشعار الموصلي

د. عبد الفتاح محمد الحلو

الاحتفال بالمأثور وتعظيمه وتوقيره أمر جبلت عليه الطبيعة الانسانية ، وتقديس ما خلفه الآباء والأجداد احساس عميق فى النفس ينزع الانسان نزعا اليه ، ويزداد لصوقا به على مر الأيام ، وليس فى ذلك بأس ، فعن طريق هذا الموروث بنت الانسانية حضارتها لبنة لبنة ، وكل جديد يضيفه جيل يصبح ميراثا لجيل تال وهكذا .

ولكن البأس كل البأس حين يصل تعظيم هذا الموروث الى الحد الذى يحقر معه كل جديد ، وينفى معه كل محدث ، حين ذاك تقف مسيرة الحياة بالأمة ، وتجمد عند حقبة زمنية ، بينما الحياة تسير والزمن يتجدد ، وفى ذلك الهلاك .

وقد نشطت حركة رواية الأدب واللغة خلال القرن الثانى الهجرى ، وتجمعت لدى العلماء والأدباء حصيلة ضخمة عن الجاهلية وصدر الاسلام وعصر الدولة الأموية ، حصيلة تبهر العقول ، وتجذب النفوس ، وتثير الاهتمام ، وبدأ الاعجاب بهذا التراث يطغى على النفوس ، وأصبحت أسسه الفنية المناهج المثالية للانتاج الأدبى ، بل ان تقديس هذا الموروث وصل ببعض العلماء الى مرحلة الجمود ، فقد كان بعض الطلاب ، ممن يعجبون بالجديد ، يلحظ تعصب أستاذه للقديم ، وهزءه بكل جديد ، فينشده قصائد لشعراء معاصرين ، زاعما نسبتها الى بعض الشعراء القدامى ، فاذا ما اطمأن الى اعجاب أستاذه

بَغى ألا إن بَغيَ المـــرءِ يَصرعُـــهُ

والدهر يُعطي الفتـَى ما ليس يطلـُبــه

يوما ويُطمِعه من حيثُ يمنَعـــــــهُ

أستودع اللهَ في بغــدادَ لي قَمــــرا

بالكَرْخ من فَلَكَ الأزْرارِ مطلعُـــهُ

ودَّعتُه وبُودّي لو يـــــــودّعني

صَـفوُ الحيــاةِ وأنّي لا أودعُـــهُ

وكم تشفّع بي ألاّ أفارِقَـــــــهُ

وللضّرورات حـــال لا تُشفّعـــــه

وكم تشبّثَ بي يومَ الرحيـــلِ ضحى

وأدمعِي مُســـتهلات وأدْمُعُـــــه

لا أكذبُ اللهَ : ثوبُ العذرِ منخرق

عنّي بفُرقتهِ لـــكن أرقّعُــــــه

إني أوسّع عُـــذْري في جنايتـــــه

بالبينِ عنـــهُ وقلبي لا يُوسّعـــــه

أعطيتُ مُلكا فلم أُحسنْ ســـياسته

وكل من لا يَسوس الملكَ يُخلعـــــه

ومن غدا لابســا ثوبَ النعيمِ بِلاَ

شكرٍ عليهِ فعنهُ اللهَ يَنْزعُـــهُ

اعتضتُ من وجْهِ خِلّي بعدَ فُرقتِهِ

كأسا تَجرّع منهــا ما أُجرّعُــه

كم قائل لي ذُقْتَ البينَ قلتُ لَـــهُ

الذنب والله ذَنبي لســـتُ أدفعُه

ألا أقمتَ فكان الرشْدُ أجمَعـــه

لو أنني يومَ بأن الرشدُ أتبعُـــه

إني لأقطـعُ أيامي وأنفـــذُها

بحسرة منـــه في قلبي تقطّعـــه

